علم المناسبات
بين
النظرية والتطبيق

الدكتور
أحمد بن عبد الله بن علي
الأستاذ المشارك بجامعة أم القرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره و نستهديه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدًا عبده و رسوله صلى الله عليه و سلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو حجة الله على العباد ، أنزله سبحانه آية باقية لرسوله الكريم صلوات الله و سلامه عليه هداية للناس ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾(سورة المائدة)، بلسان عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (سورة فصلت) فأذهلت فصاحته مصاقع الخطباء وألجمت بلاغته ألسنة البلغاء فلم يقصد لمعارضته عاقل تمّ عقله أو حكيم ظهرت حكمته ، و ما ذاك إلا للعجز المستبين و للعلم بأن مثل هذا لا يبارى إذ هو خارج عن قدرة البشر ، فلله الحمد من قبل و من بعد إذ أنزله على أوجه الكمال و التمام و تكفل بحفظه ولم يكل ذلك إلى خلقه بل استعملهم في ذلك حتى بقي هذا الكتاب غضًا طريًا لا تنقضي عجائبه و لاتفنى فوائده و لا تمل مواعظه.

وقد عني علماء الإسلام بهذا الكتاب العظيم عناية بالغة واستخرجوا من علومه ما قدرت عليه عقولهم وأدركته فهومهم فصارت بحار علومه زاخرة و آيات إعجازه باهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يسلم هذا التراث الذي تركه أهل العلم من مؤاخذات و استدراكات و أمور وقع فيها الخلاف، وهذا شأن عمل البشر الذي هو عرضة للصواب و الخطأ، فهم بين مجتهد مصيب له أجران وآخر مخطئ له أجر.

ومما وقع فيه الخلاف بين أهل العلم بالتفسير مسألة المناسبات في القرآن الكريم، حيث قد كثر فيها الكلام ما بين مثبت ونافٍ ومتوسع ومقتصد، فأحببت في هذا البحث أن أدلي بدلوي محاولًا تحديد قضية البحث أو ما يسمى بمشكلة البحث ومن ثم أحاول الإجابة عليها.

مشكلة البحث:

تعرض المصنفون في علوم القرآن الكريم لقضية المناسبات في القرآن الكريم إلا أن النظرية أخذت أبعادا غير واضحة عند البعض و غير مكتملة عند الآخرين وربما متسعة عند قوم وأخذ التنظير فيها قدرا كبيرا من المساحة في التأليف إلا أنه عند التطبيق يلاحظ قدر كبير من القصور فما المسافة بين النظرية والتطبيق ؟

أهداف البحث:

ولذا سيكون هذا البحث مجيبا عن تساؤلين:

الأول: ماهي حدود نظرية المناسبات ؟

الثاني: هل طبقها القائلون بها في كتبهم المؤلفة في التفسير ؟

ومن خلال الإجابة عن هذين التساؤلين ستظهر لنا نتائج البحث.

عنوان البحث:

أسميت هذا البحث (علم المناسبات بين النظرية و التطبيق)

نطاق البحث:

سيكون التطبيق في سورة البقرة لأن الهدف هو التمثيل والتدليل لا الاستيعاب و الحصر وذلك في التطبيق على المناسبات بين الآيات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدراسات السابقة:

تعرض جمع من العلماء و الباحثين لمناقشة هذا الموضوع قديما وحديثًا، فممن تناول هذا الموضوع من السابقين تأصيلًا العز بن عبدالسلام والزركشي في كتابه البرهان و السيوطي في كتابه الإتقان و البقاعي في مقدمة كتابه نظم الدرر و الشوكاني في تفسيره المسمى "الجامع بين فني الرواية و الدراية".

وممن ذكره تطبيقًا الرازي في تفسيره و أبو جعفر بن الزبير الغرناطي في كتابه البرهان في ترتيب سور القرآن والبقاعي في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ؛ و كتابه مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، وطبقه السيوطي من خلال عدة كتب له منها كتاب تناسق الدرر في تناسب السور وكتاب مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع.

وممن تناوله حديثًا محمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم، والزرقاني في كتابه مناهل العرفان، ومحمد أحمد الشرقاوي من خلال كتابيه الوحدة الموضوعية في القرآن وموقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، والدكتور محمد بازمول في كتابه علم المناسبات في السور والآيات.

وألفت فيه رسائل جامعية كالمناسبات في ترتيب آيات القرآن وسوره للدكتور محمد أحمد القاسم.

وألف فيه تطبيقًا الطاهر بن عاشور فإنه قد ضمن تفسيره كثيرا من المناسبات وبيّن أنه قد أتى فيها بأمور لم يسبق إليها.[1]

وبالجملة فقد صنف في المناسبات عدد من الدراسات و الكتب ولم أجد فيما ألف كتابا يجمع بين أشتات نظرية المناسبة مع تطبيق لهذه النظرية من خلال آيات الكتاب العزيز لمعرفة مدى صحة هذه النظرية.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١ / ٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطة البحث:

وقد قسمت هذا البحث إلى فصلين وخاتمة:

الفصل الأول: الجانب النظري، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المناسبة، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي.

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي.

المطلب الثالث: فوائدها.

المطلب الرابع: نشأتها.

المبحث الثاني: آراء العلماء في المناسبات.

المبحث الثالث: حدود نظرية المناسبة.

الفصل الثاني: الجانب التطبيقي.

وفيه التركيز على أهم جوانب نظرية المناسبات وهو: المناسبات بين السور والمناسبة بين الآيات وستكون دراسة مناسبات الآيات لمواضع متفرقة من القرآن الكريم من سورة البقرة لنبين مدى انطباق حدود هذه النظرية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

هذا وأسأل الله أن يوفقنا في كل أعمالنا، وأن يجعلها خالصة له، وليعلم أنّ ما بذل في هذا البحث إنما هو اجتهاد بشري قابل للأخذ و الرد فإن أصاب فيما تناول وطرح فهو من توفيق الله فحسب وإن كان ثمة زلل فهو عن غير عمد، والله ورسوله منه بريئان والحمد لله أولًا وآخرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول
الجانب النظري
المبحث الأول : تعريف المناسبة

المطلب الأول: التعريف اللغوي:

قال ابن فارس: النُّونُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ قِيَاسُهَا اتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. مِنْهُ النَّسَبُ، سُمِّيَ لِاتِّصَالِهِ وَلِلِاتِّصَالِ بِهِ. تَقُولُ: نَسَبْتُ أَنْسُبُ. وَهُوَ نَسِيبُ فُلَانٍ. وَمِنْهُ النَّسِيبُ فِي الشِّعْرِ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَأَنَّهُ ذِكْرٌ يَتَّصِلُ بِهَا ؛ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي النِّسَاءِ. تَقُولُ مِنْهُ: نَسَبْتُ أَنْسِبُ. وَالنَّسِيبُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ، لِاتِّصَالِ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ.(١)

قال الزركشي: وَالْمُنَاسَبَةُ فِي اللُّغَةِ الْمُقَارَبَةُ وَفُلَانٌ يُنَاسِبُ فُلَانًا أَيْ يَقْرُبُ مِنْهُ وَيُشَاكِلُهُ وَمِنْهُ النَّسِيبُ الَّذِي هُوَ الْقَرِيبُ الْمُتَّصِلُ كَالْأَخَوَيْنِ وَابْنِ الْعَمِّ وَنَحْوِهِ وَإِنْ كَانَا مُتَنَاسِبَيْنِ بِمَعْنَى رَابِطٍ بَيْنَهُمَا وَهُوَ الْقَرَابَةُ.(٢)

فالكلمة لها أصل واحد هو اتصال شيء بشيء وهو ذات المراد من معنى المناسبة عند من تكلم عنها.

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي.

للعلماء عدة تعريفات للمناسبة تدور كلها حول الارتباط والاتصال:

فقد عرفها ابن العربي في كتابه سراج المريدين بأنها: ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي.(٣)

قال الزركشي بعد تعريفها لغة: الْمُنَاسَبَةُ أَمْرٌ مَعْقُولٌ إِذَا عُرِضَ عَلَى الْعُقُولِ تَلَقَّتْهُ بِالْقَبُولِ، وَكَذَلِكَ الْمُنَاسَبَةُ فِي فَوَاتِحِ الْآيِ وَخَوَاتِمِهَا، وَمَرْجِعُهَا

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥ / ٤٢٣.

(٢) البرهان ١ / ٣٥.

(٣) البرهان ١ / ٣٦

والله أعلم إلى معنى مَا رَابَطَ بَيْنَهُمَا عَامٌّ أَوْ خَاصٌّ عَقْلِيٌّ أَوْ حِسِّيٌّ أَوْ خَيَالِيٌّ وَغَيْرُ ذَلِكَ.(١)

وعرفها البقاعي بأنها: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه.(٢)

فالمناسبة هي: وجه الإرتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة.(٣)

المطلب الثالث: فوائد المناسبات.

ذكر أهل العلم فوائد لهذا العلم حاصلها تتلخص في أمرين يترتب بعضهما على بعض:

الأول: إظهار وجه من أوجه البلاغة القرآنية يتمثل في تآلف الكلام وارتباط بعضه ببعض مع طول مدة تنزله واختلاف ترتيبه عن ترتيب النزول.

قال البقاعي: علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال.(٤)

قال الزركشي: و فائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ فَيَقْوَى بِذَلِكَ الِارْتِبَاطُ وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حاله حال الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ.(٥)

الثاني: إظهار إعجاز القرآن الكريم وهو مترتب على الأول.

قال الرازي: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع

---

(١) البرهان ١ / ٣٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١ / ٦.

(٣) مباحث في علوم القرآن ص ٩٧.

(٤) نظم الدرر ١ / ٥.

(٥) البرهان ١ / ٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك.(١)

قال البقاعي: وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب ؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:

أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

والأول أقرب تناولًا، وأسهل ذوقًا ؛ فإن كلَّ من سمع القرآن من ذكيّ وغبيّ يهتز لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، و رهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، و كلَّما دقَّق النَّظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز، ثُمَّ إذا عَبَرَ الفَطِنُ من ذلك إلى تأمل ربط كلّ جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك ورأى أنَّ الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد، فظنَّ أنَّها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهزّ والبسط ؛ وربما شككه ذلك بكثير وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه، وربما وقف مكيس من أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين بعد ما وضحت لديه دلائله، وبرزت له من حجالها دقائقه وجلائله، لحكمة أرادها منزله، وأحكمها مجمله ومفصله فإذا استعان بالله - سبحانه وتعالى - وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوثوق بأنَّه في الذروة من إحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى و اللفظ لكونه كلام من جلَّ عن شوائب النقص، وحاز صفات الكمال إيمانا بالغيب، وتصديقًا للربّ قائلا ما قال الراسخون في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾(سورة آل عمران)،

---

(١) مفاتيح الغيب ٧ / ١١٢.

فانفتح له ذلك الباب، ولاحتْ له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار رأص الفكر منه طربًا وشكر لله استغرابًا وعجباً وشاط لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانه ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنها منها أخذت، فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله، وغطّاه وجلاّه، وبينه غاية البيان وأخفاه.(١)

قال محمد عبدالله دراز: لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!(٢)

ويمكن أن تضاف فائدة ثالثة تستنبط من كلام البقاعي وهي أنها طريق الإيمان عند من تشكك أو احتار في أمر بعض الآيات التي لا يظهر وجه ارتباطها فإذا انكشفت له رسخ إيمانه.

هذه بعض الفوائد التي ذكرت، وقد ذكر بعض الباحثين مجموعة أخرى من الفوائد، ويلاحظ أن جميعها يقع في جانب التنظير المجرد عن الدليل الواضح السالم من المعارض، فلا توجد دراسات تطبيقيه تثبت صحة ما يذكره البعض على أنه فائدة، و ما ذكر على أنه دليل لايسلم من

---

(١) نظم الدرر ١ / ٧.

(٢) النبأ العظيم: ص ٢٨٤. و في هذا الكلام مبالغة كبيرة لم يسبق الشيخ إلى مثلها ولست بصدد الرد عليها ولكن كيف تكون أعجز المعجزات هي أخفى الخفيات ! ؟، وكيف تكون كذلك ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ما يشير إشارة لمثل ذلك !؟ ولو اكتفى الشيخ الفاضل بقوله إنها إحدى المعجزات لما سلمت له فكيف وقد جعلها معجزة المعجزات !؟

المعارضة.

ولعمري لئن تشكك متشكك في كتاب الله عز وجل بعد كل ما قرأ فيه من الآيات الباهرات والأدلة و البينات التي تنبيء عن كونه كلام العزيز الحكيم فلن تجدي معه ولن يرفع شكه ذكر مناسبة يذكرها مفسر باجتهاد منه يحتمل الصواب و الخطأ فضلًا عن ذكر مناسبة غاية في الركاكة أو خفية غامضة قد لا تظهر إلا عند قائلها.

ولست بصدد مناقشة هذه الفوائد التي ذكرت – وكلها تحتاج إلى مناقشة _ ولكني أسجل موقفًا تشربته نفسي وخالط تأثيره دمي ولحمي وهو أن القرآن الكريم العظيم أرفع حالًا وأعظم منزلة من أن تتكلف له مثل هذه التكلفات وأعظم من أن يساق إلى مثل هذه المضايق الموهومة والإشكالات المزعومة التي لا تثبت مع الإيمان الثابت واليقين الراسخ، فهيهات أن يتشكك مؤمن في كتاب الله لمجرد ورود آية في غير السياق، بل هو بين موقفين اثنين: فإما أن يكون قد أدرك أسلوب القرآن الذي ليس هو من قبيل ما ألفته العرب من شعرها ونثرها وإن كان على طريقتها في اللغة فما يزيده ذلك إلا إيماناً مع إيمانه وإحسانًا إلى إحسانه، وإما أن يخفى عليه وجهه فيقول كما يقول الراسخون في العلم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ مع اعترافه بعجزه عن إدراك كل جوانبه وعن إحاطته بفصيح بيانه، وأجزم أن عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أحد هذين الموقفين.

وأود أن أسجل موقفًا آخر وهو أن الدفاع عن القرآن بمجرد العاطفة وحشد الألفاظ من قبيل كلمة الإعجاز و التلويح بها في كل حال ضرر أكبر من نفعه ومغبته أشد من تركه،ذلك أن قائله لم يدقق في هذا الوصف _ أعني الإعجاز _ ولم يتلمس على وجه الدقة حده ورسمه بل أطلقه مجازفة أو حماسًا فجعل ماليس بمعجز معجزا فسهّل على من أراد الطعن

طريقه وهيأ له ما لم يدر بخلده، فما أسهل نقض إعجازه حينئذ على هذا الطاعن لا لأن القرآن ليس بمعجز حاشاه بل لأن ما سبق في غمرة الحماس ليس بإعجاز أصلًا.

المطلب الرابع: نشأة علم المناسبات:

نقل الزركشي في البرهان عن الشيخ أبي الحسن الشهراباني أن أول من أظهر المناسبة ببغداد _ ولَمْ يكنْ سمع مَنْ غيْرِهِ _ هُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ وَكَانَ غَزِيرَ الْعِلْمِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَدَبِ وَكَانَ يَقُولُ عَلَى الْكُرْسِيِّ إِذَا قرئ عليه الآية لِمَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ السُّورَةِ؟ وَكَانَ يُزْرِي عَلَى عُلَمَاءِ بَغْدَادَ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِالْمُنَاسَبَةِ.

ونقل عن ابن العربي قوله في سراج المريدين: ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي عِلْمٌ عَظِيمٌ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ إِلَّا عَالِمٌ وَاحِدٌ عَمِلَ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا فيه فلما لَمْ نَجِدْ لَهُ حَمَلَةً وَرَأَيْنَا الْخَلْقَ بِأَوْصَافِ الْبَطَلَةِ خَتَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ ورددناه إليه.(١)

ثم توالت المؤلفات التي أخذت منحيين في ذكر المناسبات:

المنحى الأول: ضمن مصنفات التفسير.

ويظهر هذا الاتجاه في تفسير الرازي الذي أكثر من ذكر المناسبات، وتفسير أبي الحسن الحرالي المسمى (مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل) وتفسير ابن النقيب(٢) وقد ذكرهما البقاعي في مقدمة تفسيره

---

(١) البرهان ١ / ٣٦.

(٢) اسمه التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذكر أنه استفاد من الأول منهما[١].

و تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ذكر المناسبات في ثناياه، واهتم بذكرها أبوحيان في تفسيره البحر المحيط وابن عادل في اللباب، وتفسير ابن عاشور المسمى (التحرير و التنوير) ذكر كثيرا من المناسبات[٢]، وفي تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب جملة وافرة من علم المناسبات خاصة ما يتعلق بالوحدة الموضوعية في السور.

المنحى الثاني: التأليف في المناسبات خصوصًا.

وقد ألف فيها أبوجعفر ابن الزبير الغرناطي كتابه (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، ثم ألف برهان الدين البقاعي كتابه المشهور (نظم الدُّرَر فِي تناسب الْآيَات والسور) وكتابا آخر هو (مصاعد النَّظر للإشراف على مَقَاصِد السُّور)، وألف السيوطي عدة كتب منها (تناسق الدرر في تناسب السور) و(أسرار التنزيل) و (مراصد المطالع في تناسب المقاطع و المطالع)، و ألف عبد الله بن صديق الغماري (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

---

١) انظر: نظم الدرر ١ / ١.

٢) سجلت رسائل جامعية في قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى عن المناسبات في تفسير ابن عاشور وقد كنت عضواً مناقشاً في أحدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني
موقف العلماء من المناسبات

اختلف العلماء في الموقف من المناسبة على قولين:

القول الأول: قول من أثبت المناسبة في كل آي القرآن و بين جمله و ألفاظه في الآية الواحدة بل وبين سوره وبين مطلع السورة ومختتمها.

وإلى هذا القول ذهب أكثر من تكلم عن المناسبة ممن سبق ذكرهم كابن العربي والرازي وابن الزبير الغرناطي والبقاعي والسيوطي وغيرهم.

القول الثاني: قول من نفى اشتراط ذلك مع إقراره بوجودها نظرًا لطبيعة كلام العقلاء فضلًا عن كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

ويمثل هذا القول العز بن عبد السلام حيث قال: الْمُنَاسَبَةُ عِلْمٌ حَسَنٌ وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ فِي حُسْنِ ارْتِبَاطِ الْكَلَامِ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرٍ مُتَّحِدٍ مُرْتَبِطٍ أَوَّلُهُ بِآخِرِهِ فَإِنْ وَقَعَ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ ارْتِبَاطُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ.

قَالَ: وَمَنْ رَبَطَ ذَلِكَ فَهُوَ مُتَكَلِّفٌ بِمَا لَا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حَسَنُ الْحَدِيثِ فَضْلًا عَنْ أَحْسَنِهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي أَحْكَامٍ مُخْتَلِفَةٍ وَلِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَتَأَتَّى رَبْطُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ إِذْ لَا يَحْسُنُ أَنْ يَرْتَبِطَ تَصَرُّفُ الْإِلَهِ فِي خَلْقِهِ وَأَحْكَامِهِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ مَعَ اخْتِلَافِ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ كَتَصَرُّفِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَالْمُفْتِينَ وَتَصَرُّفِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ بِأُمُورٍ مُتَوَافِقَةٍ وَمُتَخَالِفَةٍ وَمُتَضَادَّةٍ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَطْلُبَ رَبْطَ بَعْضِ تِلْكَ التَّصَرُّفَاتِ مَعَ بَعْضٍ مَعَ اخْتِلَافِهَا فِي نَفْسِهَا وَاخْتِلَافِ أَوْقَاتِهَا.[1]

---

(١) انظر البرهان للزركشي ١ / ٣٧ .

المبحث الثالث

حدود نظرية المناسبة

بدأت نظرية المناسبة بفكرة الربط بين الآيات بعضها مع بعض بحيث تكون كلاما واحدًا كما نقل الزركشي حيث قال: قال الشيخ أبو الحسن الشهراباني أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ بِبَغْدَادَ عِلْمَ الْمُنَاسَبَةِ - وَلَمْ نَكُنْ سَمِعْنَاهُ مَنْ غَيْرِهِ - هُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرِ النَّيْسَابُورِيُّ وَكَانَ غَزِيرَ الْعِلْمِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَدَبِ وَكَانَ يَقُولُ عَلَى الْكُرْسِيِّ إِذَا قرئ عليه الآية لِمَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ السُّورَةِ؟ وَكَانَ يُزْرِي عَلَى عُلَمَاءِ بَغْدَادَ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِالْمُنَاسَبَةِ انْتَهَى[١]

ثم تطورت هذه النظرية لتربط بين السور بعضها مع بعض ثم تطور الأمر إلى أمور أخرى مثل التناسب بين أول السورة وخاتمتها والمناسبة بين اسم السورة و مضمونها، ويمكن أن نلخص هذا التطور في الآتي:

أولًا: المناسبة بين الآية و الآية التي تسبقها.

ثانيًا: المناسبة بين السورة و السورة.

ثالثًا: مناسبة مفتتح السورة لمختتمها.

رابعًا: مناسبة اسم السورة لمضمونها.

خامسًا: المناسبة بين مقاطع الآية الواحدة.

سادسًا: مناسبة الآية لموضوع السورة أو ما يسمى الوحدة الموضوعية

وأضاف البعض أنواعًا أخرى من المناسبات يمكن إدراجها في الأنواع السابقة كمناسبة اختتام الآية بأسماء الله الحسنى المعينة[٢] فإنه بالنوع الخامس.

---

(١) البرهان ١ / ٣٦.

(٢) ألفت فيها عدة رسائل جامعية بقسم الكتاب و السنة بجامعة أم القرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهذه أهم ملامح هذه النظرية التي تبين لنا حدود هذه النظرية التي تبدأ بربط السورة بالتي قبلها ثم بمناسبة اسم السورة لمضمونها ثم بمناسبة مفتتح السورة لمختتمها ثم بالمناسبة بين مقاطع الآية الواحدة ثم مناسبة الآية لموضوع السورة وعامودها ثم مناسبة الآية للآية التي قبلها.

ونلاحظ هنا أن هذه النظرية بهذه الأبعاد لم تقع في تفسير من التفاسير بحدودها الكاملة المذكورة في النسق السابق، ومرد هذا لأسباب:

أولها: أن النظرية لم تتبلور في أذهان المفسرين - خاصة ذوي الريادة في هذا الفن _ بكامل حدودها بل أخذت وقتًا متطاولًا من الزمان حتى استقرت ؛ فما بين أبي بكر النيسابوري المتوفى سنة ٣٢٤ ه وبين الفراهي صاحب نظرية النظام[1] المتوفي سنة ١٣٤٩ ه مايقارب الألف عام.

ثانيًا: أن الإقدام على ذكر بعض أنواع هذه المناسبات أو كلها يشغل عن المقصد الأصلي للتفسير ويطيل المؤلفات بغير ذي طائل في كثير من أحواله مما يؤدي لانصراف الناس عنه.

وهذا ملاحظ عند بعض من ألف في هذا الفن في بعض جوانبه كالبقاعي مثلًا الذي أطال في ذكر المناسبات فلم يكن لتأليفه من الحظوة ماوقع لتفسير ابن جرير أو ابن كثير أو البيضاوي أو القرطبي أو حتى تفسير بعض المبتدعة كتفسير الزمخشري أو غيرها من التفاسير التي اشتهرت و تلقاها العلماء والعامة بالقبول.

وقد لاحظ ابن العربي ذلك حيث نقل عنه الزركشي في البرهان قوله: ارتباط آي الْقُرْآن بَعْضهَا ببَعْض حَتَّى تكون كالكلمة الْوَاحِدَة متسقة الْمعَانِي منتظمة المباني علم عَظِيم لم يتَعَرَّض لَهُ إِلَّا عَالم وَاحِد عمل فِيهِ سُورَة الْبَقَرَة، ثمَّ فتح الله عز وَجل لنا فِيهِ فَلَمَّا لم نجد لَهُ حَمَلَة ورأينا الْخلق

---

(١) سيأتي ذكرها في صـ١٥و١٦.

بأوصاف البطلة ختمنا عَلَيْهِ وجعلناه بَيْننَا وَبَين الله ورددناه إِلَيْهِ.(١)

وحسبك أن ترى الفرق بين كتابه (أحكام القرآن) الذي نفع الله بـــه وبين ما ختم عليه ولم يستفد منه أحد !

ثالثًا: عزوف بعض المفسرين أصلًا عن التطرق لهذه النظرية لما لهم من تحفظات عليها، وهذا يؤدي إلى ضعف الحركة العلمية المصاحبة لهذه النظرية مما يؤخر نضوجها أو يؤدي إلى انتهائها.

رابعًا: وهو من أهم الأسباب أن تطبيق هذه النظرية بكامل حـــدودها على جميع آيات القرآن في غاية الصعوبة وهو أقرب للتكلف منه للتفسير.

وأهل العلم القائلين بالمناسبات لا تجد منهم إلا التدليل لنظريتهم من خلال انتقاء آيات تشهد لما هم بصدد إثباته مع تركهم لآيات أخرى قد تكـــون شـــاهدة بضد ما أرادوا التدليل عليه هذا على مستوى التنظير،وعلى مستوى التطبيق فإن القائلين بها في بعض مطولاتهم ربطوا بين تلك الآيات التي لا تشـــهد للمناســـبة برباط ضعيف ركيك لا يستقيم ودعوى الإعجاز التي ألصقت بالمناسبات.

فالتنظير في هذه المسألة أكثر من التطبيق ومرد ذلك إلـــى ســـهولة التنظير المبني على الحماس لفكرة ما وحشد أفراد الأدلة التي يظـــن أنهـــا كافية للتعميم مع أن هذه الأدلة من الأدلة التي لم يقع فيها خلاف أصلًا كمن يربط بين آيات ظاهر وجه ارتباطها ثم يستدل بها على عموم المناسبة في كل القرآن ويترك ما وقع فيه الخلاف.

ولك أن تنظر في حجم ما ألف في هذه النظرية تطبيقًا وبين ما نفـــع الله به من كتب التفسير والحديث و الفقه لترى الفرق الهائل بينهما

فهذه بعض الأسباب التي منعت من اجتماع كل أنواع المناســـبة فـــي تفسير واحد.

---

(١) البرهان ١ / ٣٦.

ولما تعثرت نظرية المناسبة عند التطبيق ظهرت نظرية جديدة هي نظرية النظام الذي أتى بها عبد الحميد الفراهي في كتابه (دلائل النظام) حيث يقول مبينا الفرق بينهما: قد صنف بعض العلماء في تناسب الآي والسور وأما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع عليه، والفرق بينهما أن التناسب إنما هو جزء من النظام فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما وربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالهما، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب فأنكروا به، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرًا ومنها ما ترى فيه اقتضابا بينًا وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها.

وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملًا[1] واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض فكما أن الآيات ربما تكون معترضة فكذلك ربما تكون السور معترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاما واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.[2]

فواضح من خلال هذا النقل أن نظرية المناسبة بصورتها الأولية لما كانت غير متسقة ولا مطردة في كل أحوالها عمد فريق إلى محاولة إيجاد مخرج يجيب عن التساؤل القائم وهو: ما علاقة هذه الآية بما قبلها ؟ والذي لم يستطع القائلون بالمناسبة إثبات اطراده في كل الآيات.ومن هنا نشأت نظرية النظام.

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب:كلاماً

(٢) دلائل النظام لعبد الحميد الفراهي ص ٧٤ – ٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner